قلة ، لكن مع ذلك مايزال صوت بـوق رولاند يصـدح خـلال ممـر رونسيفو « يالهي كم هو محزن صوت البوق في قلب الغابات »

٢ ـ الصورة الاقطاعية:

غالبا ما استخدمت عبارة « عصور وسطى » بشكل غير محدود لتغطي الفترة الممتدة من نهاية عصـور الظـلام (حـوالي القـرن التاسع) الى بداية عصر النهضـة (حـوالي القـرن السـادس عشر) ومن السهل أن نخرج بانطباع أن المجتمع الأوروبـي بقـي خلال تلك الفترة متشابها بعضه من بعض ، وكان كله منظما بشكل ماعلى أساس « النظـام الاقـطاعي » وهـذه آليتنا القـانونية والاجتماعية حتى هذا اليوم ، لكن التنظيم الاقطاعي الأصـيل كان قد بدأ بالتمزق في كل مكان تقـريبا في حـوالي القـرن الحـادي عشر ، (الوقـت الذي دونت فيه ملحمـة رولاند كتـابة للمـرة الأولى) ليتخلى عن مواقعه لصالح نمط مـن الحـكومات الأكثـر مركزية في ظل التيجان التي تـزايدت قـوتها بشـكل كبير ، ومـع منتصف القرن الثاني عشر كان وجه المجتمع قد تبـدل كليا ، فقـد توفرت ثقافة جديدة وأدب جديد ، ومواثيق جديدة للعلاقة والسـلوك بين الرجل والمرأة ، وأخلاق جديدة ، وعادات جـديدة ، وأسـلحة جديدة ، واهتمامات جـديدة ، وتـطورات جـديدة في الكنيسـة والقلعة ، والمعسكر والبلاط ، وان هذا ماذفكر بـالعادة فيه عندمـا نسمع عبارة « العصور الوسطى » لأن القصة والصـورة جعلتهـم معروفين بالنسبة لنا ، لكن نشيد رولاند ينتمي الى قلب الفتـرة غير المتطورة ، وعندما جعل انعدام الأمـن الكلي في الحياة مـن القـوة المادية الضرورة التي هي أساسية لعدد كبير من الفضـائل ، وكان الشغل الشاغل لكل بارون في أن يجعل من نفسه ملاذا قويا للقاطنين على أرضـه ، وبناء عليه جـاءت البنية الاقـطاعية حسـبما ظهرت ـ بشكل غير مقصود التنظيم ، من الأوضاع السائدة ، بنية مجتمع منجذب بشكل دائم الى الأعمـال الحـربية ، وكانت أغانيه كلها تقريبا حكاياته حول المقاتلين الشجعان والأعمال البـطولية في

المعركة ، وليس حول السيدات أو الافتتان ، أو مغامرات العالم الاخرى مثل روماذسيات الفرسان التي ستأخذ مكانهم ، وكان العالم الفرنسي أيام « اناشيد الاعمال » عالما للرجال بشكل واضح أكثر من عالم هومر ، أو عالم الحكايات الكلتية الشعبية ، أو حتى عالم الملاحم الاسكندنافية ، وأحيانا صدف بالفعل للمرأة أن صنعت ظهورا لذفسها ، أحيانا كما فعلت سيدة صلبة متماسكة مثل غيوبروك ، زوجة وليم أوف أورانج ، التي كانت قادرة على الاحتفاظ بقلعة زوجها أثناء غيابه ، وتمكنت أن تطبخ له ايضا وجبة عظيمة جدا لدى عودته من ميدان المعركة ، وأحيانا كضحية غير سعيدة لحظوظ الحرب ، مثل الحسناء أودي في نشيد رولاند ، وأحيانا مثل الملكة المسلمة براميموند ، التي كانت امرأة روحانية ، لكن بأفق ضيق لتدرك فيه امكاناتها ، لكن لم تسلط أية انفعالات عاطفية قوية على هذه السمات الانثوية ، وكانت العلاقات التي تلامس شفاف القلب هي العلاقات التي تربط التابع بمولاه والمقاتل برفيقه بالسلاح وصديقه ، وكانت الروابط فيما بين الجنود الاتباع قوية دوما ، ووضحت قوتها الفائقة عندما سببت الحرب الغياب عن المنزل لسنوات في وقت لم تتوفر فيه الرسائل أو وسائل الاتصال ، وامتلكت العلاقة فيما بين رولاند وأولفر البريق والعمق والاخلاص في روابط الحب ، لكن بدون سوء نية أو انفعال عاطفي حولها ، وبذل ذلك القرن جهده للتقليل من قيمة العلاقات البشرية الى حد أنه من الصعب ايجاد كلمة كافية وافية لوصف هذه العلاقات القوية من التعاطف والاعجاب والاخلاص بين رجلين ، ان كلمة « صداقة » صغيرة وليس فيها مايكفي من حرارة ، وعبارة « عبادة متبادلة للبطولة » هي صغيرة أيضا وجافة في نبرتها العالية

ولعل الشيء الاكثر اثارة بالنسبة لنا حولها هو أن نلاحظ أنه في الأحوال الجادة والرسمية ، كانت عبارة التخاطب والتشريف الفرنسية في الحزن والسرور وفي الغضب والهيام ، وفي القتال والموت هو دوما « سيدي اللطيف » رفيقي